

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس: 82

الأستاذ: سماحة العلامة الشيخ معين دقيق

الدرس: تفسير القرآن الكريم

المبحث: سورة الإنسان

التاريخ: 30\04\2024 م

كتبه: عبدالله ضيف الستري

اتضح لدينا أن تتبع النظائر ومصاديق أفعال وفعل يقتضي أن تكون فعل تدل على اللبث والمدة، وأما أفعال لا تدل على ذلك. وقلنا إن هذه المتابعة للنظائر تنسجم مع ما ذكره أئمة اللغة ولا تتنافى معها.

بقي لدينا نقطتان لابد أن يحسم الأمر فيهما:

النقطة الأولى: مع قطع عن هيئة الكلمة، المادة وهي: النون والزاء واللام، تدل على هبوط شيء من مكان مرتفع. هنا ينبغي أن نلتفت إلى أنه تارة يكون هذا الهبوط مادياً كما لو أنزلت كتاباً عن الرف إلى الأرض ولا يوجد فيه أي مشكلة مع قطع النظر استعمال نزل أو أنزل.

وأخرى يكون الهبوط معنوياً، كما في إنزال الحديد أو في الموارد التي استعملت هذه المادة في الأنعام وما شابه ذلك، فهذه الأنعام لم تكن في مكان مرتفع ثم نزلها الله سبحانه وتعالى، فالأمر ليس كذلك. فهل يعدّ مثل هذا الاستعمال من الاستعمالات المجازية حتى يقال المجاز في اللغة العربية باب واسع؟

ففي مثل تنزيل الكتاب من الرف إلى الأرض أو من رف إلى رف فهذا استعمال حقيقي، وفي مثل تنزيل الأنعام وخلقها وإبداعها فهذا تنزيل مجازي. فهل أمر كذلك أو أن تلك الآيات وتلك العبارات فيها نوع من التضمنين، وأن نزل ضمنت معنى آخر وكلمة أخرى تتناسب مع الأمور المعنوية؟

بحسب الظاهر أنه لا ينبغي ولا نلتزم لا بالتضمنين ولا بالإسناد المجازي وما شابه ذلك. ففي مثل هذه الآيات والاستعمالات -والتي سوف نقرأ بعضها- الباري تبارك وتعالى استعملها في الإيجاد والخلق، لكن وصف نفسه بالعلو ووصف نفسه برفيع الدرجات ووصف نفسه بالقاهر فوق عباده.

هذه السلطنة وهذا الجبروت فما يصدر منه يكون فيه نحو من أنحاء التنزيل، قياس عالم الملك إلى عالم الملكوت¹ يقتضي بوجود نوع من الهبوط، لكن هذا الهبوط معنوي. واختلاف الموارد لا يجعل الاستعمال استعمالاً مجازياً.

النقطة الثانية: في النسبة بين الإنزال والتنزيل في القرآن الكريم بحسب الموارد، فبحسب الموارد في القرآن الكريم نجد أن النسبة هي عموم وخصوص من وجه، أي بعض الموارد مشتركة بينهما فاستعمل فيها الإنزال والتنزيل، وبعض الموارد خاصة بالتنزيل، وبعض الموارد خاصة بالإنزال. فهذا يفيدنا في تحديد المعنى النهائي.

إذا كانت النسبة بين التنزيل والإنزال هي العموم والخصوص من وجه فموارد الاشتراك جاءت في الماء، قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾² فاستعمل الإنزال، وفي آية أخرى ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾³ هنا استعمل التنزيل، فقد استعمل كلا مفردتان.

أيضاً من الموارد المشتركة الكتاب، قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾⁴ استعمل الإنزال، وفي آية أخرى ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾⁵ فاستعمل الإنزال والتنزيل.

وكذا اسم الموصول مع قطع النظر عن صلته، أي: الاسم المبهم، قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾⁶ ﴿مَا﴾ اسم موصول مبهم فاستعمل أنزل وفي سورة أخرى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾⁷ فاستعمل نزل، والأول أكثر في القرآن الكريم وهو استعمال الاسم المبهم مع الإنزال.

وكذا لفظة القرآن قوله تعالى: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾⁸، وفي سورة أخرى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾⁹.

¹ وربما في الروايات يشار إليه بعالم الغيب إلى عالم الشهادة.

² البقرة: 22

³ العنكبوت: 63

⁴ آل عمران: 7

⁵ الزمر: 1

⁶ البقرة: 91

⁷ محمد: 26

⁸ طه: 2

⁹ الإنسان: 23

وكذا لفظة السورة قوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا﴾¹⁰ وفي سورة أخرى ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْ لَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾¹¹، فيوجد فيها إنزال وتنزيل.

وكذا لفظة من السلطان، قوله تعالى: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾¹² وفي آية أخرى ﴿أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾¹³. وكذا لفظة الفرقان قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾¹⁴ وفي سورة أخرى ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾¹⁵. وكذا لفظة الذكر قوله تعالى ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾¹⁶ وفي سورة أخرى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾¹⁷. وكذا لفظة التوراة والإنجيل ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾¹⁸ وفي آية أخرى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ﴾¹⁹ فاستعمل إنزال وتنزيل. وكذا لفظة المائدة قوله تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً﴾²⁰ وفي آية أخرى ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً﴾²¹. وكذا لفظة المن والسلوى قوله تعالى ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى﴾²² وفي سورة أخرى ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى﴾²³.

هنا المشكلة التي حيرت علماء التفسير، أنه مهما فرقت بينهما تلاحظ أنه استعملت في أشياء على نحو الاشتراك.

أما الموارد التي اختص فيها الإنزال، فقد اختلف عن التنزيل في موارد:

-
- 10 النور: 1
 - 11 محمد: 20
 - 12 يوسف: 40
 - 13 آل عمران: 151
 - 14 آل عمران: 4
 - 15 الفرقان: 1
 - 16 الطلاق: 10
 - 17 الحجر: 9
 - 18 آل عمران: 3
 - 19 آل عمران: 93
 - 20 المائدة: 114
 - 21 المائدة: 112
 - 22 البقرة: 57
 - 23 طه: 80

المورد الأول: السكينة، قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾²⁴ فلا يوجد تنزيل في القرآن الكريم للسكينة بحسب الظاهر.

المورد الثاني: الحديد، قوله تعالى ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾²⁵.

المورد الثالث: اللباس، قوله تعالى: ﴿قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ﴾²⁶.

المورد الرابع: أمانة نعاساً، قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نُعَاسًا﴾²⁷.

المورد الخامس: الرزق، قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾²⁸.

المورد السادس: الذين ظاهروا، قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ﴾²⁹.

المورد السابع: ثمانية أزواج، قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾³⁰.

المورد الثامن: الملك، قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾³¹.

أما الموارد التي اختص فيها التنزيل، فقد اختلف عن الإنزال في موارد:

المورد الأول: الحكم الشرعي فيه تنزيل ولا يوجد فيه إنزال، قوله تعالى ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾³².

المورد الثاني: أحسن الحديث، قوله تعالى ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾³³.

إذا كانت النسبة بين هذه الموارد هي نسبة العموم والخصوص من وجه، فهل يمكن لنا حينئذ القول إن ملاحظة النظائر يكفي لبيان الفرق، أن التنزيل يحتاج إلى لبث، والإنزال دفعة ولا يحتاج إلى لبث؟

²⁴ الفتح: 4

²⁵ الحديد: 25

²⁶ الأعراف: 26

²⁷ آل عمران: 154

²⁸ يونس: 59

²⁹ الأحزاب: 26

³⁰ الزمر: 6

³¹ الأنعام: 8

³² النساء: 140

³³ الزمر: 23

الإشكال في هذه الطوائف الثلاث يكمن في الطائفة المشتركة، والذي استعمل الإنزال والتنزيل في موارد مشتركة. فحينئذ ماذا تكون نتيجة هذا الاستعمال القرآني؟ هل تنسجم النتيجة في الاستعمالات القرآنية مع النتيجة التي أخذناها من ملاحظة النظائر والمعنى اللغوي أم لا؟

بالنسبة للكتب السماوية مثل القرآن والإنجيل والتوراة والفرقان والذكر، فهو ينسجم مع النتيجة الحاصلة من المقاربة اللغوية، فيصح استعمال الإنزال والتنزيل لاختلاف القصد، فإذا كان نظر الآية إلى بيان تدرج في هبوط الذكر والكتب السماوية فهو تنزيل، وإذا كان المقصود الاستشهاد بهذا الذي بين الدفتين فيناسب أن يستعمل معه الإنزال.

فمن هذا المنطلق بداية لا يكون الاشتراك في بعض الموارد سبباً لرفع اليد عن المقاربة اللغوية، أي: مجرد شخص يرى ما قيل في المقاربة اللغوية والنظائر فالتنزيل فيه لبث دون الإنزال، فمجرد ملاحظة وجود أمور مشتركة استعمل فيها التنزيل والإنزال لا يبطل هذا التفريق؛ لأن الحثية قد تكون مختلفة. غاية الأمر نريد أن نطبق ذلك، هل فعلاً القرآن الكريم هكذا استعمل أم لا؟

فإذاً مجرد اشتراك بعض المصاديق بين الإنزال والتنزيل لا يلغي النتيجة التي أخذناها من المقاربة اللغوية ومن مقارنة النظائر. وأكبر شاهد على ذلك استعمال هذه المفردة في الكتب السماوية.

في أول سورة آل عمران استعمل مع القرآن الكريم إنزال وتنزيل، لكن في المورد الأول استعمله مع مقابلته بالتوراة والإنجيل، وفي المورد الثاني استعمل القرآن لوحده من دون أن يأخذ المقابلة مع التوراة والإنجيل.

عموماً يمكن لنا من تتبع هذه الآيات أن نحافظ على النتيجة التي حصلنا عليها من المقاربة اللغوية والمقاربة النظائر في الهيئة.